حجاج الإيهام والمغالطة في الخطابة العربية

(منتخبات من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي)

أ.د. عمارية حاكم

أستاذة محاضرة "أ"، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الدكتور مولاي الطاهر، سعيدة، الجزائر.

رئيسة مشروع دكتوراه في اللسانيات وتعليمية اللغة العربية

مديرة مخبر الترجمة والتأويل في ظل التواصل متعدد اللغات

الهاتف: 61 95 23 50 002135 - 52 84 30 51 02135

البريد الإلكتروني: hakemamaria13000@gmail.com

الاستلام	٢٠١٧/٢/٥	المراجعة	٢٠١٧/٣/٧	النشر	٢٠١٧/٤/٣٠

الملخص:

الحجاج ظاهرة لغوية ملازمة لكل تخاطباتنا اليومية والرسمية؛ غير أن مجاله الحقيقي هو الخطابة والفلسفة والقضاء والفقه، لأن كل هذه المجالات تحتاج إلى الجدل والمناقشة، وإلى الحوار والتفاعل، وإلى الإدلاء بالحجة لغلبة الخصم وإفحامه من أجل الاقتناع بقضية ما أو فكرة ما، أو تغيير سلوك معين.

وجدير بالذكر أن منبت الحجاج هو تلك الخطابات الدينية والسياسية والثقافية والفلسفية وكذا التعليمية، أي كل الخطابات التي تشمل المتكلم والمستمع والخطاب، ويضرب الحجاج بجذوره في الحضارة الأثينية منذ القرن الخامس قبل الميلاد؛ حيث مهدت له جماعة من السوفسطائيين، وهم معلمون كانوا يقدمون فن الخطابة لأبناء الأغنياء والنبلاء من أجل اعتلاء مناصب سياسية، مقابل أثمان باهضة، إلا أن دروسهم التي كانت تقدم، كانت قائمة على بلاغة الإيهام والمغالطة من أجل خداع حشود الناس، ولقد أثار هذا الصنيع حافظة الفيلسوف الكبير أفلاطون الذي كان يمجد العقل، في حين إن تلميذه أرسطو قد قسم الخطابة إلى ثلاثة أقسام؛ الخطابة الاحتفالية، والخطابة الاستشارية، وخطابة الأولمبيات.

تطورت البلاغة في عهد كل من أرسطو ومعلمه، بالإضافة إلى شيشرون وكينتليان، إلا إنه قد خبا نورها إلى أن جاء رجل القانون التشيكي (شاييم بيريلمان) الذي أعاد لها بريقها، وذلك بمؤلفه الشهير " مصنف في البرهان: البلاغة الجديدة" مع اللسانية البلجيكية (لوسي أولبريخت تيتكاه) عام 1958، وقد تبلورت هذه البلاغة مع (ستيفان أولمان) في كتابه" استعمالات الدليل والحجة"، (وشارل هاميلان) في كتابه" الأوهام"

ويسمى هؤلاء الباحثون بالبلاغيين الجدد، حيث تقوم بلاغتهم على استعمال آليات وتقنيات بلاغية لغوية ومنطقية، بمعنى كل الاستراتيجيات التي يستعملها المتكلم من أجل إقناع المستمع، لذلك ارتبطت البلاغة بالحجاج ارتباطا وثيقا، فاستعملت تقنيات البلاغة في عملية الفهم والإقناع القائم على الصدق أو الإيهام والمغالطة.

وعلى هذا الأساس، سأعالج في بحثي، بعض صور الإيهام والمغالطة في منتخبات من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي، منتهجة المنهج التداولي للكشف عن آليات الحجاج التي استعملها الخطيب لإيهام جمهوره لما قتل عبد الله بن الزبير في الكعبة، معرجة إلى خطب أخرى مشابهة.

الكلمات المفتاحية:

المنطق، البرهان، اللغة، الخطابة، البلاغة، الحجاج، التداولية، التواصل، الحوار، الإيهام، المغالطة، المثل، الأسلوب.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

Images of argumentation: Illusion and fallacy in Arabic oratory

(Selected Speeches of argumentation Al-Hajaj Ibin Yusuf al-Thaqafi as a Case Study)

Prof. Amaria Hakem

Professor of Linguistics, University of Moulay Taher, Saida, Algeria.

Email: hakemamaria13000@gmail.com

Received	5/2/2017	Revised	7/3/2017	Published	30/4/2017

Abstract:

The argumentation is a linguistic phenomenon inherited in our daily and official discourses. However, his real fields are rhetoric, philosophy, and jurisprudence, because all these areas are in need of debate, discussion, dialogue and interaction in order to proof the idea of the orator.

It is worth mentioning that the roots of argumentation are the religious, political, cultural, philosophical and educational discourses. All these discourses include speaker, listener and orator.

The argumentation speeches belong to the Athenian civilization since the fifth century BC.; a group of orator teachers were, in exchange for high prices, teaching oratory to the children of rich and noble families for some political occasions. Their lessons were based on the rhetoric of illusion and fallacy in order to deceive certain crowds of people.

This work provoked the great philosopher Plato, who glorified the mind, while his disciple Aristotle divided rhetoric into three sections; ceremonial, advisory, and Olympic rhetoric

The rhetoric developed in the reign of Aristotle and his mentor, in addition to Cicero and Quintilian, but it stepped back until the Czech lawmaker (Chaime Pirelman), who restored the glory of rhetoric in his famous book *"The New Rhetoric*" which co-authored with the linguist Lucy Olbericht (1958).

This rhetoric was crystallized with Stefan Ullmann in his book *"The Uses of Evidence and Argument*" and Charles Hamelan in his book "*Illusions*"

These researchers are called neo-rhetoricians. Their rhetoric uses rhetorical and logical mechanisms, techniques and all the used strategies by the speaker to convince the listener. Therefore, rhetoric is closely related to argumentation where persuasion is based on honesty, illusion and wrongness.

Accordingly, I will tackle in my research some images of illusion and fallacy in a group of sermons by Al-Hajaj Ibin Yusuf al-Thaqafi.

The study has adopted pragmatic method to reveal the mechanisms of argumentation used by his messenger orator to misunderstand his audience when Abdullah ibn al-Zubayr was killed in the Kaaba. With some other quoted speeches.

Keywords: Logic, Proof, Language, Rhetoric, Argumentation, Communication, Dialogue, Illusions, Fallacy, Ideals, Style

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

تمهيد:

إن العودة إلى تراثنا الأدبي وعلى رأسه الخطابة يجعلنا نقف على حقيقة مؤداها أنه يجب أن نلائم بين روح التراث من جهة وبين مقتضيات الرهانات العلمية في هذا العصر، لأن تراثنا العربي غني جدا، يستدعي كل الاهتمام والدراسة والتمحيص حتى نقف على كل ما تركه لنا القدامى، وحتى نعيد له الاعتبار كما وكيفا.

ولأنني رأيت أن الاهتمام أصبح منصبا من قبل الباحثين بشكل كبير على الرواية، كما كان الاهتمام بالشعر في العصور القديمة، ارتأيت أن أسلط الضوء على جنس أدبي كبير في صدر الإسلام ألا وهو الخطابة العربية وذلك من منظور حجاجي تداولي. وقبل التحليل لابد من تعريف الخطابة.

1- الخطابة مفهوما:

الخطابة كما يعرفها الأقدمون هي مجموع القوانين التي يعرف بها الدارس طرق التأثير بالكلام وحسن الإقناع بالخطاب، وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات. وما ينبغي أن يتجه إليه من المعاني في الموضوعات المختلفة، وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة، وأساليبها، وترتيبها، وهو بهذا ينير الطريق أمام من عنده استعداد الخطابة، ليربي مكانته، وينمي استعداداته، ويطب لما عنده من عيوب، ويرشده إلى طريق إصلاح نفسه ليسير في الدرب ويسلك السبيل[1].

ولقد قال ابن وهب:" إن الخطابة مأخوذة من خطبت، أخطب، خطابة... واشتق ذلك من الخطب وهو الأمر الجليل؛ لأنه إنما يقام بالخطب في الأمر التي يجل، والاسم منها؛ خاطب مثل راحم، فإذا جعل وصفا لازما قيل خطيب، والخطبة الواحدة من المصدر.. والخطبة الكلام المخطوب به"[2].

ومن الخطب والخطبة اشتق الخطاب والمخاطبة لأنهما مسموعان؛ لذلك عرفت الخطابة بأنها مشاركة في فعل ذي شأن، والمفاعلة تفيد الاشتراك. والخطب من منظور أبي هلال العسكري تستعمل في إصلاح ذات البين وإطفاء نار الحرب، وحمالة الدماء والتشييد للملك، والتأكيد للعهد، وفي عقد الإملاك، وفي الدعاء إلى الله، وفي الإشادة بالمناقب، ولكل ما أريد ذكره ونشره وشهرته في الناس"[3]

2- خطابة أم بلاغة؟:

عندما تميزت الاتجاهات وتحددت التخصصات التي تهتم بالخطابة؛ تحدد مدلول الخطابة (الريطوريقا) والخطاب، واللغة، والكلام، حيث ترجم مصطلح ريطوريقا (***Rhétorique***) إلى معنيين؛ يقول محمد الولي:" تفضل ترجمة خطابة حينما يكون المقصود بلاغة الحجاج، ونفضل ترجمة بلاغة حينما يكون المقصود بلاغة المحسنات"[1].

ومصطلح (***Rhétorique***) في (التقليد الغربي يحيل من جهة على التعبير الأنيق الذي يسعى إلى الإمتاع، ومن جهة أخرى يحيل على الخطاب بوصفه فعالية حجاجية واستدلالية غرضها الإقناع. لذلك ذهب أرسطو إلى تعريف الريطوريقا بأنها:" الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضع كان"[2]، وبناء على ارتباط مصطلح الريطوريقا بالإقناع؛ بنى تراجمة العرب اعتقادهم على أن الريطوريقا تعني الخطابة، منطلقين في ذلك من الجانب التداولي في تسمية " بلاغة"، الذي يصلنا بالإقناع[3] كون "الإقناعي يطلق على الخطابي وهو الدليل المركب من المشهودات والمظنونات"[4].

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

أما بعض المترجمين العرب فقد فضلوا ترجمة الريطوريقا بالبلاغة، لأنهم نظروا إلى الجانب الأسلوبي والشعري فيها، انطلاقا من اشتغالها المتمثل في وصف وتفسير مختلف الأنماط التعبيرية الخطابية (القصة والمسرح والرواية والخطاب السياسي والديني وكذا الإشهاري...) بعدما كانت في زمن أرسطو محصورة في الأجناس الثلاثة (لاستشارية والقضائية والاحتفالية).

وعلى الرغم من التأرجح الدلالي لمفهوم "ريطوريقا يمكن استثمار المسرد التاريخي الذي عده بارث حول "البلاغة القديمة" الذي كشف عن ثلاثة معان تعاقبت على مصطلح "بلاغة"، وهي[5]:

1. البلاغة مبحث قديم وجهته الإقناع.
2. البلاغة مجموعة من صور التعبير قصدها الإمتاع.
3. البلاغة تقنية قابلة للتدريس.

وفي التقليد الغربي – دائما- تدل تسمية "بلاغة" على معنيين هما[6]:

أ- المعنى الحجاجي الذي يصب في التداوليات الحديثة.
ب- المعنى التعبيري الشعري الذي يصب في الأسلوبيات.

وهذا الذي أدى إلى توجه ثالث جمع المعنيين تحت اسم البلاغة الجديدة التي اتجهت هي الأخرى اتجاهين اثنين هما:

1. التوجه الحجاجي المنطقي الذي يجر البلاغة إلى المنطق عبر الجدل.
2. التوجه الأسلوبي الشعري الذي يجر البلاغة إلى الشعر عبر الأدب.

واستنادا إلى هذا التوجهين ظهر توجه ثالث جمع هو الآخر بينهما هو التوجه السيميائي الذي حاول تجاوز تلك الازدواجية بتقديم صياغة عامة قادرة على وصف واستيعاب جميع الأنواع الخطابية[1]. وعليه كان لابد من ارتباط البلاغة بأصولها الفلسفية والاستدلالية في الإبستيمولوجية الأرسطية، وكما هو معروف؛ فقد ارتبطت البلاغة عند الفلاسفة الأوائل أمثال أفلاطون وأرسطو وشيشرون بفن الإقناع؛ ثم انتقلت إلى علماء الحجاج الجدد أمثال: شايم بيريلمان، وأولبريخت تيكاه، وأوليفي، وروبول الذين بلوروا وحاوروا البلاغة القديمة وحولوها إلى البلاغة الجديدة أو الحجاج، انطلاقا من المجهودات الأرسطية التي تعد بحق المرجعية الأساس التي يكاد ينطلق منها معظم الباحثين على السواء في البلاغة والخطابة والحجاج وحتى في التداوليات.

3- الحجاج والتداولية:

في عصرنا الحالي أصبحت مباحث الحجاج والتداوليات عاملا حاسما لإعادة الاعتبار إلى التراث، خاصة ما تعلق بالبلاغة العربية؛ لأنها لم تنهج نهج البلاغة اليونانية التي فصلت بين الشعرية (***Poetica***) والخطابة (***Rhetorica***). يقول عمر أوكان:" البلاغة تشتغل أساسا بقضية القيمة الجمالية في النصوص الإبداعية؛ منطلقة في ذلك من الاستعمال الخاص للغة لتجعل منه موضع درسها، على اعتبار أن هذا الاستعمال بحكم منجزه والظروف العامة التي يتنزل فيها، ليس فعلا عاديا ولكنه طريقة مخصوصة في التعبير، يسعى المتكلم من خلالها إلى تجاوز الإبلاغ إلى التأثير.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

والعلم الذي يدرس اللغة أثناء الاستعمال هو التداولية التي تكاد لا تنفصل عن ملازمتها للحجاج ضمن حقل التواصل اللغوي وحتى غير اللغوي؛ لأنها هي العلم الذي يدرس علاقة اللغة أو العلامات اللسانية بمستعمليها أو مؤوليها؛ لأن ما تبلغه العلامات أو اللغة ليس مجرد مضمون، بل هو معنى تداولي "وليد" تفاعل الذوات المتخاطبة في مواقف معينة ومختلفة. الأمر الذي يدفع إلى ضرورة النظر إلى اللغة والتعامل معها "... كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية معا"[(2)]. وعلى هذا الأساس؛ لا يمكن للغة أن تفهم بمعزل عن أبعادها الاستعمالية والاجتماعية والتواصلية وما يرتبط بذلك من عمليات ذهنية ونفسية واستدلالية وتأويلية.

وبهذا الشكل، نجد بأن التداولية تدرس البعد الاستعمالي الحي للغة، لأن لديها قدرة خطابية على تحقيق التواصل بين الذوات عبر صيغ وأشكال متعددة، وعلى قدرة هذه الذوات على انجاز فعل لساني اجتماعي تواصلي، وفق شروط ومقاصد واستراتيجيات وتقنيات خاصة، ومن ثم كانت التداولية أقرب إلى لسانيات التلفظ أو لسانيات فعل القول التي تسعى إلى تأمل الملفوظ ضمن نظرية الفعل الاجتماعي التواصلي.

ولأن كلا من الحجاج والتداولية يلتقيان في الحقل التواصلي؛ ولأن البلاغة الجديدة تتعامل مع الخطابات النصية المختلفة منذ منتصف القرن العشرين تعاملا علميا وصفيا جديدا ضمن مجموعة من الاتجاهات؛ لسانية، وأسلوبية، وحجاجية وتداولية وسيميائية. وأكثر من هذا؛ فقد أصبحت البلاغة – اليوم- تمثل إمبراطورية واسعة ذات امتدادات شاسعة.

ولأن عصرنا هو عصر الحجاج والجدال والإقناع والتأثير والحوار؛ خاصة مع تطور الإعلام، وانتعاش الديمقراطية في مجموعة من الدول الغربية والعربية، فما فتئت الحاجة ماسة إليه بعد أن كثر الخلاف والعنف والتطرف، وكل ذلك لأن الحجاج سبيل العقل والمنطق والاختلاف والتسامح والحوار البناء والجدال الحسن.

إذن؛ ليس الحجاج ظاهرة فكرية حديثة وإنما جذوره ضاربة في التاريخ؛ خاصة عند العلماء اليونان والرومان والمسلمين، وفي ثقافتنا العربية يتجلى الحجاج واضحا في علم الكلام والفلسفة وعلم الأصول والنحو والمناظرات والمنطق وفي الخطابة.

وعلى هذا الاعتبار؛ وجدنا أن نظرية التواصل اللساني تنطلق أساسا من معرفة كيف نتواصل أكثر من معرفة ما يتم إيصاله، ومن أجل ذلك فهي تفتح بابا مهما لمعرفة الطرائق والآليات والتقنيات التي تتم بها صياغة الأقوال، ومن ثم فهي تطل على الكيفية التي يشتغل بها الذهن البشري لترتيب الأفكار والتعبير بها عن المشاعر والمعتقدات، والتأثير بها في الآخرين، وإذا كانت هذه الوظائف في غالبها ترتبط بالمعنى الضمني (غير المباشر) وليس بالمعنى الحرفي (المباشر) الذي هو مجال النظريات التواصلية العلمية (الآلية)، فإن النظريات المعاصرة انفتحت على معطيات تجاوزت النقل الحرفي إلى البحث في الخلفيات المعرفية السياقية التي تحكم التواصل التفاعلي الإيجابي بين المتكلمين والمستمعين، وهي معطيات تداولية تؤثث الفضاء التواصلي العام بمختلف العوامل: المعرفية والسياقية والنفسية والاعتقادية.

ومن هنا؛ فإن التداولية بصفة عامة هي المعرفة الشاملة بالآخر والمعرفة العميقة بمكنونات عمليات التخاطب، أو هي كما يحددها "فكوني" جزء من العلم المعرفي باعتباره المستوى الوسيط بين العالم الحقيقي أو الفيزيائي وعالم اللغة؛ وهما عالمان لا يرتبطان بشكل ميكانيكي، وإنما تعمل اللغة على تجسيد ديمومة البناء المعرفي الواسع للعالم. كما أن هذه الديمومة لا تعكس العبارات التي ينشئها الإنسان، ولا العالم الحقيقي الذي تعتبر قضاياه صورة للتعبير اللغوي، وإنما

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

تنحو في اتجاه تنظيم الميكانيزمات التي تشتغل وفقها الأنظمة السيكولوجية والذهنية، فاللغة باعتبارها ميكانيزما سيكولوجيا تتقاسمه آليات ذهنية متنوعة (تركيب، استنباط، مجاز، معجم...) تشتغل وفق عمليات تفكيكية واستنتاجية، وهي عمليات أصبحت تعالج اليوم في إطار تداولي داخل النظرية الحجاجية، بعدما كانت تدرس وتحلل داخل النظام التواصلي الذي تحكمه قواعد النقل[1].

وانطلاقا من علاقة التداولية بالحجاج؛ فلا احد يجادل في أننا نعيش عصر التواصل والحجاج، أي في عالم مشرع على أصناف الدعاوي والحجج، بحيث غدت الحجة والمعلومة عصب حياة المجتمعات المعاصرة في مجالات الإشهار والدعاية والقضاء والسينما والبيداغوجيا والإيديولوجيا والسيكولوجيا واللائحة طويلة تصل إلى تواصل العامة، بل إن التواصل الإنساني – جملة- قائم على الحجاج إلى حد أن المرء ليُسلم بأنه " لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج من غير تواصل"[2].

وضمن هذا التقديم المتواضع والتوضيحي والموجز عن كل من الخطابة والبلاغة والحجاج والتداولية، سنتناول خطبة العصر الأموي؛ وهي خطبة الولاية على العراق (75ه) للحجاج بن يوسف الثقفي. ولماذا العصر الأموي بالتحديد؟

4- نبذة تاريخية:

يعد العصر الأموي امتدادا للعصر الراشدي وعصر الرسول – صلى الله عليه وسلم- فقد تطور النقد الأدبي في هذا العصر تطورا كبيرا استنادا إلى تلك الموازنات التي كانت تقام بين الشعراء، خاصة بين الفرزدق والأخطل وجرير وغيرهم، إما من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان أو الشعبي أو غيرهما.

وفي العصر الراشدي كان المسلمون في مرحلة من الوعي النقدي لقرب عهدهم بالرسالة المحمدية، ثم اختلف الأمر عندما صاروا إلى العصر الأموي، إذ اختلف نظام الدولة، وانتقلت الحكومة من نظام الشورى والانتخابية إلى النظام الوراثي المستبد، وتغيرت الطبقة الحاكمة وزاد الاختلاط بالأقوام غير العربية، وتعمق الانشقاق في صفوف المسلمين أنفسهم. ولقد كانت العقلية العربية في صدر الإسلام والعصر الأموي وردح من العصر العباسي تميل إلى الوضوح في التفكير والتجربة المباشرة في التعبير عن ذلك التفكير، ومما لا مراء فيه أن النقد الأدبي هو صورة من صور ذلك التفكير[3].

ولعل المتطلع على أحوال العصر الأموي الاجتماعية والسياسية والثقافية، يلاحظ أن فن الخطابة في هذا العصر كان مزدهرا؛ لأنه كان من مقتضيات ذلك العصر الذي تميز بالفتن وكثرة الحروب لانتزاع الخلافة أو الذود عن الإمارة، وها هو ذا الحجاج بن يوسف الثقفي يضعه عبد الملك بن مروان واليا على العراق بعدما انتصر في عدة معارك وأثبت جدارته واستحقاقه بسيفه وعدم توانيه في قطع الرؤوس كما شهد له التاريخ بذلك، وكما ورد في كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ، و(العقد الفريد) لابن عبد ربه، وغيرهم من الذين أرخوا لسير وتراجم الخلفاء والأمراء والشعراء والأدباء....

صور الحجاج في منتخبات الحجاج ابن يوسف الثقفي:

مرّ المنطق في علاقته باللغة بمرحلتين؛ تمثلت الأولى في المنطق الأرسطي الذي له علاقة مسبقة ومتوازية بين المنطق واللغة مبنية على أساس التعريفات ذاتها، وهكذا لم يكن المنطق سوى تحليل للفكر القائم على اللغة، أما المرحلة

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

الثانية فقد أسفرت عن القطيعة بين الجانبين (المنطق واللغة) حيث بنى كل من "بول" (Boole) و"مورجان" (Morgan) نموذج المنطق بوصفه لغة صناعية تهدف إلى تفادي وجوه القصور في اللغة الطبيعية، كاللّبس وعدم التماسك[1].

أما التعريفات التي تقدم اليوم عن اللغة، فإنها تتأسس على منطلقات وظيفية تأخذ في حسبانها لغة الحياة بمسوياتها المختلفة باعتبارها ظاهرة بشرية، وبعد الكلام هو الإطار الشرعي للظاهرة اللسانية، ثم يأتي مفهوم التداولية ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة العربية القديمة بعبارة "مقتضى الحال" التي أنتجت المقولة الشهيرة "لكل مقام مقال".

وإن كنا نعثر على سابقتها الواضحة في عبارات "شيشرون" (Ciceron) الروماني الذي يقول: "إن الرجل البليغ يجب أن يقدم قبل كل شيء البراهين على حكمته، ويتكيف مع مختلف الظروف والشخصيات، أعتقد بالفعل أنه لا يجب أن يتكلم دائما بنفس الطريقة أمام الجميع، ولا ضد كل شيء، ولا لصالح كل شيء، عليه إذن لكي يكون بليغا أن يكون جديرا بأن يجعل لكل مقام مقالا"[2].

وانطلاقا من هذه المفاتيح التي يسلمنا إياها "شيشرون" يمكننا الولوج إلى عالم خطب الحجاج "لنكشف الأدوات الإقناعية التي استعان بها، حتى يكون جديرا بلقب الرجل البليغ.

1- القياس الخطابي:

يتسع القياس الخطابي ليشمل كل صور الاستقراء والاستنتاج القائمة على الاحتمال لا القطع، وأولها: التعارض والتضاد، وثانيها التقسيم المستقصي.

1-1- التعارض والتضاد:

ومن أمثلة ذلك مايلي:

1- قال الحجاج في إحدى خطبه: "زعمتم أني ساحر، وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَاحِرِ﴾، وقد أفلحت"[3]

وتخريج هذا المقتطف هكذا:

- لا يفلح الساحر.

- أفلح الحجاج

- الحجاج ليس ساحرا.

- هم كاذبون، لأن تصديقهم يؤدي إلى تكذيب الله، والله أكبر منهم، إذن: لا مفر من أن ينكسر الأصغر.

2- "زعمتم أني أعلم الاسم الأكبر فلم تقاتلون من يعلم مالا تعلمون؟"[4].

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

وتخريجه:

- من يعلم الاسم الأكبر لا يغلب.

- تفترضون أني أعلم الاسم الأكبر.

- إذن: أنتم مخطئون في مقاتلتي.

3- وقال أيضا: "يا أهل العراق، بلغني أنكم تروون عن نبيكم أنه قال: من ملك على عشر رقاب من المسلمين، جيء به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه، حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور، وأيم الله، إني لأحب إلي أن أحشر مع أبي بكر وعمر مغلولا من أن أحشر معكم مطلقا"[5].

وتخرجه:

- أبو بكر وعمر حكما.

- الحكم لم يوبق أبا بكر وعمر.

- الحكم لا يوبق أحدا.

وفي هذا المقتطف الأخير، نلمس استشهادا بالمثل الرفيع الذي لا يجرؤ المستمع على الطعن فيه؛ كما فيه تحقير لأهل العراق وكما هو معلوم فإن للمثل قوة القياس المضمر، كما أن الحكمة إذا أضيف إليها تفسير صارت قياسا[6].

وقصارى ما نود توضيحه، أن منتخبات الحجاج لم تخل من الأقيسة العقلية المتنوعة، التي يدخل معظمها فيما أحصاه "أرسطو" وذلك أنها تعود إلى طبيعة العقل الإنساني وإلى مبادئه، ولكن لا يجب الاتجاه إلى المنطق المكثف ولا إلى الحجة العقلية الصريحة، لأن مجال ذلك هو المناظرات بين المكلمين وأصحاب المذاهب الدينية، لا الخطابة التي توجه إلى متلق ليس في مقدوره إلاّ التنفيذ والاستجابة.

ولقد سبق الذكر أن القياس الخطابي يقوم على الاحتمال والترجيح، ومجاله الأساس في نظرية "أرسطو" المرافعات القضائية، وإن كان موضوعنا ليس هو الخطابة القضائية، فإن الواقع يقتضي منا الاعتراف بأن كل المواقف يسعى فيها الخطباء إلى تبرئة الذمة ودفع التهمة لفعل شنيع. كما فعل الحجاج بن يوسف عندما قتل عبد الله بن الزبير بالحرم، وجزع الناس لذلك جاء في جمهرة خطب العرب:

"ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله، ولو كان شيء مانعا للعصاة لمنع أدم حرمة الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته، فلما عصاه أخرجه منها، بخطيئته، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة"[7].

فلكي يهون الحجاج من شأن قتل ابن الزبير في الحرم، أتى بقصة أدم وخروجه من الجنة، وتقوم رؤية الحجاج في هذا المقتطف على مقاله تفصيلية ضمنية من ثنائياتها.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

- ابن الزبير ← آدم، وآدم أكبر من ابن الزبير

- حبر هذه الأمة ← خلقه الله وأسجد له الملائكة.

- الطمع في الخلافة ← الأكل من الشجرة الخلد.

- الخلافة ← الخلد.

- مكة ← الجنة، والجنة، أكبر من مكة.

- الدولة (الخليفة+الحجاج) ← الله جلّ وعلا.

- القتل ← الطرد من الجنة.

ويمكن تفصيل هذه المعطيات كالآتي:

أ- المشبه به:

- الله خلق آدم وأنعم عليه بأن أسجد له ملائكته وأسكنه جنته واشترط عليه ألا يأكل من شجرة الخلد.

- آدم لم يف بالشرط وأكل من الشجرة.

النتيجة: حلّ به عقاب الله وهو الطرد من الجنة.

ب-المشبّه:

- اختلف ابن الزبير مع الدولة الأموية دون منٍّ منها، أو التزام منه.

- قتل ابن الزبير لهذا الاختلاف.

وعلى الرغم من أن المعطيات بين المشبه به والمشبه لا تتطابق، وعلى الرغم من أنها تقوم على الإيهام بالتشابه، فإنها مقبولة في الخطابة التي تقوم على الاحتمال والإمكان لا على اليقين[8].

وهكذا يتجلى أن الحجاج يكون قد قدر ردود أفعال جمهوره، وبنى عليها أقواله، وهو لذلك استنبط تلك الأقوال الافتراضية (زعمتم أني ساحر) حججا هيأ لها أخرى (وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾) وقد أفلحت. و"زعمتم أني أعلم الاسم الأكبر، فلم تقاتلون من يعلم مالا تعلمون؟" مما يسمح لنا بالوقوف على خطابين، أحدهما ضد الآخر.وبما أن الخطاب الحجاجي يتموضع دائما قياسا بخطاب ضد حقيقي أو تقديري، فإنه يسهم في تحقيق النشاط التواصلي الذي تفرضه البنية اللغوية ذاتها أو السياق النصي. وقد يتعين بطريقة مباشرة عن طريق الروابط الحجاجية (Connecteur Argumentatif) التي تصل المقدمة بالاستنتاج وتتدخل في توجيه دلالة المحاججة، كالقسم، والاستفهام، والشرط وغيرها[9].

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

وتبدو تلك الإجابات أو الإقرار بعدم صحتها سببا لنتائج معينة، هي بمثابة الفعل الاستنتاجي العام الذي تتمحور حوله كل المعطيات الحجاجية في هذا الخطاب، والأساس الذي يقيم عليه المتكلم استدراجه للمخاطب، ولهذا نقول إن المتكلم "يقوم بالفعل الاستنتاجي حينما يتلفظ بقول ما، وفي الوقت نفسه يرجع إلى معطى معين يقدمه على أساس أنه نقطة انطلاق لاستدلال سيؤدي إلى إصدار القول"[10]. ولذلك فإن الفعل الاستنتاجي ما هو في الحقيقة إلا خطاب حجاجي مرتبط بالوضعية التبليغية التي يقيمها الحجاج على التأثير والإقناع.

ولعل بنية المخاطبة على هذا الوضع التبليغي هي التي حذت بالحجاج إلى الشرح والتعليل والتدعيم، في خطبته بعد قتله ابن الزبير في الحرم وجزع الناس لذلك كما سبق وأن رأيناه.

1-2- التقسيم المستقصي:

جاء في إحدى خطب الحجاج بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "إن الله كفانا مؤونة الدنيا، وأمرنا بطلب الآخرة، فليت الله كفانا مؤونة الآخرة، وأمرنا بطلب الدنيا، مالي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون، وشراركم لا يتوبون؟!، مالي أراكم تحرصون على ما كفيتم، وتضيعون ما به أمرتم؟!"[11].

فالمتلقي لهذه الخطبة، يدرك أن الحجاج يسعى إلى الإيحاء بالإحاطة بالموضوع من كل جوانبه، وذلك لصرف نظر المستمع عن البحث والتقصي، ولعل الشيء الذي يسهل الإقناع في هذه الخطبة هو ذلك "العجب" وتلك "المقابلة".

2- المثل:

يقوم المثل في الخطابة مقام الاستقراء في المنطق، ومن هنا يمكن الجزم أن المثل هو استقراء بلاغي؛ كما أنه حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية لأحديهما وذلك بالنظر إلى مماثلتها[12].

ولقد انتبه دارسوا النص القرآني -والبلاغيون العرب بالمساهمة والمثاقفة إلى أهمية المثل في إحداث الإقناع، ومن هؤلاء ابن وهب الذي يقول: "وأما الأمثال فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجع مطلبا، وأقرب مذهبا، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[13] وقال: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِم، وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾[14]، وكذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم، ونطقت ببعضه على ألسن الطير والوحش، وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها"[15].

ويستعمل المثل في تقدير الزركشي "لإخراج مالا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة، وما لم تجربه العادة، ومالا قوة له من الصفة إلى ماله قوة "[16] كما أن المثل "قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدها الآخر ويصوره..."[17] وهكذا فإن المثل يؤثر في النفس مثل تأثير الدليل[18].

وبعد هذا، فإن المثل دعامة كبرى من دعائم الخطابة، لما يحققه من تأثير وإقناع، وهو إذا أخذ بمعناه الواسع الذي يشمل التشبيه، والاستعارة، صار أهم دعامة من دعائم البلاغة، وهذا هو المنحى الذي سار عليه بيريلمان وأولبريشت في كتابهما المشهور (traité de l'argumentatif) ولا شك في أنه المنحى نفسه الذي انتهجه حيث ربط بين علم البيان (وعماده: التشبيه والتمثيل والاستعارة) بعلم المعاني من جهة، وعلم الاستدلال من جهة ثانية[19].

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

ويتنوع المثل من التاريخي إلى التشبيهي فمن المثل التاريخي، استغلال الحجاج قصة آدم وشجرة الخلد، لكي يبرر موقفه المحرج بعد قتله لابن الزبير -وقد سبق الحديث عن ذلك- وأما المثل التشبيهي، فيتمثل في تلك الآيات القرآنية التي يستشهد بها الحجاج في خطبه، كلما دعاه الموقف إلى ذلك.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في خطبة الولاية: فإنكم لـ﴿كَأَهْلِ قَرْيَةٍ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ، فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[20].

وتخريج هذا التشبيه كمايلي:

- أهل العراق ← - أهل القرية
- أمير المؤمنين أمر الحجاج بإعطاء أهل العراق أعطياتهم. ← - الله أتى أهل القرية رغدا من كل مكان
- أهل العراق إذا لم يستقيموا على الحق كان عقابهم سفك الدماء، سلب الأموال وتهديم الديار ← - أهل القرية كفروا بأنعم الله فتحول أمانهم وطمأنينتهم إلى خوف وجوع.

والملاحظ أن هذا النوع من التمثيل يقوم على الاستعارة والرمز بصفة عامة (فسفك الدماء، وسلب الأموال، وتهديم الديار) رمز للخوف والجوع، و"إعطائكم أعطياتكم" رمز إلى النعمة، وقوله "أن أوجهكم لمحاربة عدوكم" رمز لتحقيق الطمأنينة والسلام بعد الاستجابة للنداء والقضاء على العدو.

وخلاصة القول أن نماذج الأقيسة الخطابية من تعارض وتضاد، وتقسيمات مستقصية وتمثيل كلها تمثل ما يسمى بالانسجام الداخلي للخطاب الإقناعي.

الانسجام مع الخارج.

تسمى الوسائل المستعملة في هذا الصدر عند أرسطو بالحجج أو البراهين الجاهزة، أو غير الصناعية، وتتضمن الشهود والاعترافات والقوانين وأقوال الحكماء، وإن كان هذا يخص الخطابة القضائية، فإن الخطابة العربية تتضمن بالمقابل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالإضافة إلى الشعر والأمثال والحكم، وهي أيضا براهين جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مدى مصداقية الناس عليها، وتداولها بينهم، أما دور الخطيب فإنه ينحصر في مدى براعته وتوفيقه لاختيار هذه البراهين، وتوجيهها إلى الغرض المقصودة للاستدلال عليها.

جاء في البيان والتبيين: "وأكثر الخطباء لا يتماثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر، ولا يكرهونه في الرسائل إلا أن تكون إلى الخلفاء"[21]، فالأبيات الشعرية إذا ما رصدت للإرهاب والإغراب كما في معظم خطب الحجاج؛ فإنها تعد بمثابة المثل والحكمة لما لها من قوة في التأثير والإقناع.

ولقد جرى خطباء العرب منذ العصر الجاهلي على التمثيل بالشعر في خطبهم، وهي سمة في الخطابة العربية، وأكثر ما نجد التمثيل بالشعر في خطب بني أمية وولاتهم، وقل أن نجده في خطب الخوارج والشيعة[22].

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

ولعل الحجاج خير نموذج لعصره، في إكثاره من الاستشهادات الشعرية، كما في خطبة الولاية، ومرد ذلك أن الأبيات الشعرية تساهم بشكل كبير في بناء الخطبة إلى جانب أن تدعيم الصورة بما تشيعه من إغراب وإحالة على عالم خاص يدعم الصوت والإيقاع كذلك، ومن أجل ذلك كان العرب يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، أو كلام من النظم، لأن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقة وسلس الموقع[23].

وهكذا فإن الاستشهاد بالآي القرآني لم يكن حكرا على الخطباء الدينيين دون غيرهم، بل استفاد من تأثير النص القرآني نخبة كبيرة من الخطباء على تفاوت في ذلك؛ ومن الخطباء الذين جعلوا المادة الأساسية في خطبهم ورسائلهم آيات قرآنية؛ عثمان بن عفان، مصعب بن الزبير، زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي وغيرهم[24].

وبالإضافة إلى ما يؤديه المثل (قرآنا، شعرا، حكمة، ...) من دور في التأثير والإقناع، فإنه يشع في الخطب روحا بدويا (لا يقعقع لي بالشنان، لألحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنّكم عصب السّلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل)، وذلك لارتباطها بالبادية، وقد اعتاد الناس تقبل مضامين الأمثال باعتبارها من خلاصة تجارب العقلاء من الأجداد والبلغاء، وهي مدعمة -في الغالب- بمجانسات صوتية تقوي الشعور بصحة محتواها.

وصفوة القول، أن النص القرآني وظف في خطب العرب لأغراض استدعته، باعتباره سلطة يتكئ عليها الخطيب إما في الاحتجاج لقضية مختلف فيها كما في المناظرات، وإما لتمثيل حالة مشابهة كما في خطبة الولاية "وإنكم لكأهل قرية..."، وإن كان هذا النوع غالبا في الخطب السياسية والوعظية، أما الغرض الأخير الذي وظف له النص القرآني فهو الاستئناس وذلك لخلق جو ديني كما في المناسبات الدينية والاجتماعية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن خطباء بني أمية كانوا يميلون إلى التمثل بالشعر واستغلال إمكاناته الإيقاعية والبيانية والمعجمية، وذلك لخلق جو من الإغراب مهيء للمستمع كما في خطبة الولاية.

1- الأسلوب:

حاول "جرجياس" أن يطبق على النثر بعض المبادئ الجمالية المستقاة من الشعر، وحينها ظهر الأسلوب ولكنه أخذ مكانة أقل من غيره من عناصر الخطابة عند أرسطو ولكن بعد ذلك تفتقت جوانبه عند اللاتين حتى ابتلع البلاغة كلها، مشخصة في الصور البلاغية، أما في البلاغة العربية التي لم تميز بين الشعر والنثر إلا في بعض الجوانب، كعدم الالتزام بالوزن، أو التطرق إلى موضوعات دون أخرى، فلقد احتل الأسلوب الصدارة[25].

ومعلوم أن عامة الناس "يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة، فلا يكفي إذن أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي"[26].

يستنتج من هذا القول أن مرمى الإقناع الخطابي ليس هو الإلزام والإفحام فقط بل مرماه حمل المخاطب على الإذعان والتسليم وإثارة عاطفته، وجعله يتعصب للقضية أو للفكرة التي يدعو إليها الخطيب، فيتقدم لفدائها بالنفس والنفيس إذا اقتضت الضرورة، ولا يكون ذلك بالدلائل المنطقية تساق جافة، ولا بالبراهين العقلية تقدم عارية، ولا يمكنه في أي حال الاستغناء عن المثيرات العاطفية، بل إن أكثر ما يعتمد عليه الخطيب في حمل السامعين على المراد منهم هو مخاطبة وجدانهم والتأثير في عواطفهم[27].

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

وهكذا فإن الاستقراء يدلنا على أن أعاظم الخطباء يستعملون بعض قواعد المنطق، ولكنهم لا يقضون أوقاتهم في تنظيم الأدلة، وتنميق البراهين التي إن أقنعت لا تؤثر في السامعين؛ بل إنهم يحركون بالتدريج ساكن هؤلاء السامعين بضروب من المؤثرات التي يتفننون في تنويعها، لعلمهم أن ما يوجده أحد المحرضات من تأثير، لا يلبث أن يهن، وينفذ، وهم باستدراج لبق، وكلمات ساحرة، وصوت عذب، يكونون جوا عاطفيا ملائما لقبول استنباطهم[28].

ولعل هذا ما يجعلنا ندرك أن الخطيب الذي يخاطب الجماهير، لا يعول في خطبه على المنطق، بمقدار ما يعول على خلق جو عاطفي مهيئ لقبول ما يقدمه له من أفكار ليسلم ويذعن لما يطلب منه القيام به، كما فعل الحجاج بأسلوب التهديد والوعيد الذي يرعد النفوس ويبرق القلوب.

ومن هنا فإن الجماعة تقبل الدلائل العاطفية الوجدانية إن طوعا أو كرها، بينما تسأم من البراهين العقلية وتضجر منها، وذلك أن الذي يضل الجماعة المتحدة المشاعر والأهواء هو العاطفة، لا العقل، ولو كان آحادها من ذوي الفكر الصائب والعقل الناضج، فإن الواحد متى انضوى تحت لواء الجماعة، غلب عليه روحها العام، وسرت إليه عاطفتها، واستولت عليه مشاعرها.

وانطلاقا من هذا الاعتقاد، فإن البراهين والأدلة لا تأخذ من نفوس الجماعات، ولهذا سعى الخطباء ذوو الملكة والحنكة والذين يعرفون كيف تتأثر، -سعوا- إلى مخاطبة شعورها، أكثر من مخاطبة العقل، ومرد ذلك أنه لا سلطان لقواعد المنطق على مشاعر الجماعة، ومن أجل إقناعها، ينبغي الوقوف أولا على المشاعر القائمة بها، والتظاهر بموافقتها، أو بالدفاع عنها، ثم يحاول الخطيب تعديلها بموازنات صغيرة عادية تشخص أمامها صورا مؤثرة كما فعل الحجاج (وإنكم لكأهل قرية...) و(إني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق)، (لألحُوَنَّكم لحوَ العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ...).

وبالإضافة إلى القدرة على التأثير في النفوس، ينبغي أن يكون الخطيب قادرا على الرجوع القهقرى متى وجد المقتضى، وأن يتفرس في كل لحظة أثر كلامه في نفوس السامعين حتى يغير منه، كلما دعت الحاجة.

ومن هنا فإن الخطيب مطالب بتجميل الأسلوب حسب المقام، والجمهور الذي إليه الخطاب؟ سواء كان الخطاب شفهيا أو كتابيا أو حواريا، كما يجب على الخطيب ألا ينسى أن لكل نوع خطابي أسلوبا خاصا يليق به، فالأسلوب في الكتابة غيره في المناقشات، وهو في الجماعات غيره في المحاكم، وإذا كان أسلوب الكتابة أدق، فإنه في الحديث أشد حركة وتنازعا[29].

وتذكر الكتب أن أكثر الخطباء العرب، هم شعراء أيضا كقطري بن الفجاءة، والكميت وآخرون، كم أن من الخطباء من كانت له ثقافة أدبية واسعة قائمة على حفظ جيد الأشعار والأمثال مع حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، والحجاج خير نموذج لهذه الطائفة[30].

وعن الحجاج يقول عمر فاروق الطباع: "كان الحجاج رجلا محبا للأدب، فلم يقصر حياته على الحرب والإدارة، بل كان يعقد للشعراء مجالس، ويجزل العطاء لمن مدح منهم بني أمية، أو أثنى على أعماله، ولعل الخطابة أبرز آثره الأدبية، وفيها تبدو شخصيته القوية الحازمة، وشدته، وقسوته، وبطشه بأعدائه، وقد حفظت له الكتب القديمة مجموعة ضخمة من تراثه الخطابي الذي يكشف عن كثير من جوانب العصر، وصروف البيئة في أثناء ولايته على العراق،

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

فقد كان يخطب في كل مناسبة، ويستعمل لسانه عند كل حادثة تقع، أو أمر يجري، أو ظاهرة تتجلى، كما كان يعمل سيفه في كل حركة عصيان، أو بادرة تمرد، أو شبهة تقع على أحدهم"[31].

وعلى هذا الأساس، فإن الحجاج في معظم المنتخبات لا يهذي بالأفكار التي تتيسر لأي شخص كان، وإنما نجده يعمد إلى نوع خاص من الأسلوب، ولئن كان أسلوب خطبة الولاية يعتمد الغلو، فقد بدا الحجاج مأخوذا بالنقمة منذ مطلعها، لأنه تجاوز "البسملة" فضلا عن سائر الأحاديث الدينية التي دأب الولاة والخلفاء على الاستهلال بها كإحدى سنن الخطب الإسلامية نتيجة لتوحيد الدين والدولة.

وعلى الرغم من الإمام علي -رضي الله عنه- كان أشد غيضا من زياد والحجاج إلا أنه لم يتخل عن المقدمة الدينية التي تبدو ضرورية لتخلع على كلام الخليفة صفة القداسة والتقوى، وإذا كانت خطبة زياد بن أبيه لم تبتدئ بالمقدمة الدينية، فذلك يوحي بصورة غير مباشرة إلى أن الأمويّين لم يأخذوا الدين في أعماق وجدانهم بالجد والتقوى الذين كان أسلافهم قد أخذوا بهما.

ونكاد نرى فيما بعد "أن الحجاج كان في حالة شبيهة بالحالة التي شهدناها في هذه الخطبة، لأنه لم يكد يعرّف بنفسه منذ أن استوى على المنبر، إلا بأنه طلاع الثنايا، وهكذا فإن الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- بالرغم من أنه لم يكن أقل نقمة من هذين الواليّين، ظهر أشدّ انضباطا، وأكثر تقيّدا بأحكام الدين"[32].

ويظهر أسلوب النقمة من خلال قوله: "يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق" فالغلوّ الذي شخّص في هذه الجملة يدلّ على أن الألفاظ كانت تنبئ في الواقع عن نفس موتورة، أكلها الحقد على أولئك القوم الذين أسرفوا في خروجهم عن الأخلاق.

ونحن إذ نتعمّق في خطبة الولاية، نجد أن الحجّاج يحاول أن يصلح سامعيه "بالإرهاب" الديني، مقلّدا بذلك الإمام علي - رضي الله عنه- وزياد بن أبيه حتى قيل "تشبّه زياد بعمر فأفرط، وتشبه الحجّاج بزياد فأهلك الناس"[33].

2- السلطة الخطابية:

لئن كان الحجّاج قد اشتهر بالدهاء والقسوة وسفك الدماء، فقد شهد له بالفصاحة والبلاغة، شأنه في ذلك شأن الولاة والخلفاء الأمويّين، ولكنه كان يجيد لغة السيف، لغة التهديد والوعيد أكثر من غيره. قال الجاحظ: "زعم أصحابنا البصريون عن أبي عمر بن العلاء أنه قال: لم أرَ قرويين أفصح من الحسن والحجاج"[34]. وعن مالك بن دينار أنه قال: "ربّما سمعت الحجّاج يخطب، ويذكر ما صنع به أهل العراق، وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه، وأنه صادق لبيانه وحسن تخلّصه بالحجج"[35].

ويروى أن الخليفة عبد الملك بن مروان قال يوما لخالد بن سلمة المخزومي: "من أخطب الناس؟ قال: أنا، قال: ثم منْ؟ قال: سيّد جذام، يعني "روح بن زنباع". قال: ثم من؟ قال: أخفيش ثقيف" يعني الحجّاج. قال: ثم من؟ قال: أمير المؤمنين. قال: ويحك، جعلتني رابع أربعة، قال: نعم، هو ما سمعت" [36].

ويكفينا من هذه الشهادات أن نتأكد من أن الحجّاج يملك سُلطة خطابية مكنته من استعمال كل وسائل الإقناع الضرورية، فقد جمع له بالفصاحة والبيان، وحسن التخلّص بالحجج، كما جمع له بأنه من أخطب الناس، وعن

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

براعته في العقل؛ قال: صالح بن سليمان بن عبد الرحمن بن الحارث: "ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض، إلا ما كان من عقل الحجّاج بن يوسف وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس كثيرا"[37].

أما عن اللّحن، فقد جاء على لسان الأصمعي: "أربعة لم يلحنوا في جدّ، ولا هزل: الشعبي، وعبد الملك بن مروان و الحجاج بن يوسف، وابن القرية، والحجّاج أفصحهم"[38].

ومن هنا فإن السلطة الخطابية الطبيعية التي يمتلكها الحجّاج، هي التي مكنته من اللجوء إلى شواهد حجاجية جاهزة كالشعر والآي القرآني، وهي لما تحتويه من قيمة علمية وتاريخية أصبحت بمثابة حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مدى مصادقة الناس عليها، ومن مدى تواترها بينهم كما أنف الذكر.

وهكذا، فبعدما يشعر المتكلم بأن كفاءته اللغوية لم تعد قادرة على مواصلة المسار التواصلي، فإن تلك الحجج الجاهزة تكون بمثابة البديل، كما أنها تأتي كوظيفة تدعيمية "إنكم لكأهل قرية كانت آمنة..." ومقابلتها "من تخلف بعد ثلاثة أيام من أخذ عطائه سفكت دمه..." فالملاحظ في هذا التصوير البديع، هو أن عقاب أهل العراق هو نفسه عقاب أهل القرية (الخوف والجوع) على أنه لا يمكننا أبدا أن نطابق بين الخالق والمخلوق.

وبالإضافة إلى أن وظيفة الحجج الجاهزة تدعيمية فإنها تؤدي وظيفة أخرى، هي إعادة التوازن بين المتكلم والمخاطب حينما يعتري العملية التخاطبية نوع من الخفوت في التفاعل، أو حينما يشعر الخطيب بذلك الخفوت، بعدما يكون آخذا في معنى "وكأنه يعترضه شك أو ظن، أن رادا يرد قوله، أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا إلى ما قدّمه، فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يزيل الشك عنه"[39].

وعلى هذا الاعتبار، تبدو الإجابات عن أسئلة مفترضة (زعمتم أني ساحر) والإقرار (وقد قال تعالى: ﴿ولاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ والنتيجة (قد أفلحت) بمثابة حجّة. وغيرها من الأسئلة التعجبية (يزعمون أنا من بقايا ثمود! وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى﴾[40] (وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون ؟!)[41] والشرط القائم على الإقرار بوضعياته معنية (من تخلف... سفكت دمه...) هي بمثابة الفعل الاستنتاجي العام (الذي تتمحور حوله كل المعطيات الحجاجية في الخطاب الإقناعي، والأساس الذي يقيم عليه الحاج استدراجه.

وبعد، فلقد تمكن الحجاج بكل ما يمتلكه من معطيات معرفيه، وقدرات لغوية تحليلية من تقديم العلل والأسباب التي جعلته يجمع أهل العراق ليسمعوا ذلك الدّوي الصارخ، فهو بعد أن يفتخر بنفسه، ينصرف إلى عرض صفات أهل العراق الذين انصرفوا إلى الشقاق والنفاق، معددا معاصيهم التي تستوجب العقاب، مؤكدا عزمه، معلنا لهم أن من يعطي له أمرا كان حظه السفك، ولعل الحجاج يكون قد استشعر عظم التهديد والوعيد الذي يحيطهم به، لذا نراه يوهمهم بالعدل واللين، ليؤكد لهم أنه يبتعد عن الأحقاد الذاتية، ويدعوهم للدفاع عن بني أمية، مؤكدا لهم في الآن ذاته أن له فيهم صرعى كثيرين، فليحذروا أنه يكونوا من صراعه.

ومن هنا، فإن تلك الأساليب التي انتهجها الحجاج كانت قادرة على التأثير والإقناع، لأنها لوّنت خطابه بنوع من الشمولية التي أعطت للمخاطب معارف لازمة به وذلك من خلال الشرح الذي "هو زيادة عن كونه نشاطا معرفيا، ونتاجا للمعرفة وموضوعا للفكر، له قواعده ومنطقه الداخلي، فهو نشاط لا يمكن إبعاده عن النشاط اللغوي: إنه أسلوب عقلاني للحديث عن التجربة"[42]، ومن هنا فهو ذو أهمية كبرى للمحاججة.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

فإذا كانت أفعال الكلام الجزئية من نداء وأمر ونهي وشرط والتي زخرت بها خطبة الولاية قد مكّنتنا من الكشف عن ذلك الصراع الذي كان قائما بين الراعي والرعية، فإنها قد أدّت إلى مستوى دلالي أكبر هو فعل الكلام ذو الطبيعة الشاملة أو فعل الكلام الجامع (Marco acte de langage)[43].

ويبدو أن ظروف عصر الحجاج السياسية والاجتماعية والدينية كانت مرجعا استقى منه الحجاج أفكاره. ولذلك جاءت معظم خطبه لتمثل وتعكس تلك الظروف، خاصة وأن المجتمع الإسلامي آنذاك كان مقسما إلى كتلتين: أهل السنة وأهل الشيعة. الأمر الذي أدى إلى ذلك الخلاف والصراع الحاد ولعل هذا ما يؤكده قول التوحيدي في كتابه "الإمتاع والمؤانسة": "فسفكت الدماء، واستبيح الحريم، وشنّت الغارات، وخرّبت الديار، وكثر الجدال، وكثر القيل والقال، وفشا الكذب والمحال، وأصبح طالب الحق حيرانا...، وصار الناس أحزابا من النحل والأديان،..."[44].

ومن هنا، فإن خطب الحجاج تنقل لنا أخباراً في أحد جوانبها التعبير عن قضية، وموقف معيّن، قضية ذلك الصراع بين أهل العراق وبين حكامهم، وموقف الحجاج من ذلك. الأمر الذي يؤكد أنه هناك تفاعل أكيد بين الخطيب والمخاطب.

وعلى هذا الأساس، تكشف أقوال الحجاج عن صراع ديني سياسي يتمثل في تمرد أهل العراق على الدين والدولة وذلك أنهم لم يأخذوا الدين بالجد، ولا ذادوا عن الدولة الأموية.

يتجلى واضحا أن خطب الحجاج تعد بمثابة البديل السيميائي الذي يظهر من خلال استراتيجية ذلك التحاور الذي أقامه الحجاج على التشكيل التعارضي بين (الأنا) المفتخرة، المهددة، و(أنت) المتمرّدة؛ الأمر الذي يكشف بدوره عن الصرع بين الراعي والرعية، بين قوة حاكمة، وقوة محكومة، بين قوة لا ترحم، وقوة لا تطيع إلا تحت ضغط الإرهاب.

ولعل شعار "الإرهاب" هو الذي ألجأ الحجاج إلى اعتماده كوسيلة مساعدة على الإقناع، وكأني بالذين أصغوا إلى خطبة الولاية يردّدون في أنفسهم قول الأديب الفرنسي "مونتين" إن رأسي ينحني أمام سيّد خطير، أما عقلي فلا ينحني[45].

3- سعة الاطلاع:

يبدو واضحا، من خلال خطبة الولاية، أن الحجاج كان على اطلاع واسع على أحوال عصره وبيئته، ولعل هذا الذي يساعده على الإقناع، وذلك أن سعة الاطلاع تمثل وسيلة أخرى للعثور على أدلة إقناعية، وإن كان "عمر الطباع" يرى أن "الحجاج لم يكن يرمي في خطبته إلى الإقناع، إنما كان يرمي إلى الإخضاع والإذلال وتنفيذ المشيئة بوساطة الإرهاب، كان يرمي إلى تأدية الرسالة التي انتدب لها، ولا يهمه نوع الوسيلة الموصلة إلى الهدف، وكأن شعاره "الغاية تبرّر الوسيلة" بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك، ونؤكد أنه كان يفضل إرهاب الناس على استمالتهم وكرههم له على محبّتهم إيّاه"[46].

وما يؤكد قول عمر الطباع، على أن الحجاج لم يكن يكترث بحب الناس له، هو خطبة الحجّاج نفسه في أهل الكوفة وأهل الشام التي مطلعها: "يا أهل الكوفة، إن الفتن وتلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، وتحصد بالسيف. أما والله إن أبغضتموني لا تضروني، وإن أحببتموني لا تنفعوني، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم، ولا المستريح إلى مودتكم..."[47].

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

ولكنا إذا كنا نتفق مع الدكتور عمر الطباع في عدم اكتراث الحجاج ببغض أهل الكوفة ولا بمحبتهم له، فإننا نخالفه الرأي في كون الحجاج لم يكن يرمي إلى الإقناع في خطبة الولاية، ودليلنا على ذلك، أن هذه الخطبة تحتوي على كل مقومات الخطاب الإقناعي كل بمقدار.

قائمة المصادروالمراجع:

- القرآن الكريم.

1. ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد، العقد الفريد، بيروت د.ت
2. أبو بكر العزاوي، حوار حول الحجاج، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط/1، 2010.
3. أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تصحيح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ج2.
4. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج1، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط5، 1985.
5. أبو عمر أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، الأندلسي، ش.و.ض: إبراهيم الإبياري، تقديم وشرح: محمد عبد السلام تدموري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
6. أبو هلال العسكري، الصناعتين، (الكتابة والشعر)، تح: محمد قميحة، دار الكتب العليمة، 1981.
7. إحسان النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، دار المعارف، مصر، 1969.
8. أحمد زكي صفوة، جمهرة خطب العرب، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت، د.ط.
9. أرسطو، الخطابة عند أرسطو، الترجمة العربية القديمة، تح: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، د/ط، 1979.
10. إسحاق بن إبراهيم ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: خنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، 1969.
11. أشرف موسى، الخطابة العربية وفن الإلقاء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1978.
12. آمنة بلعلى، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002.
13. إيليا الحاوي، في النقد والأدب مقدمات جمالية عامة مقطوعات من العصر الإسلامي الأموي، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، ط5، 1986.
14. التهانوي، كشاف اصطلاح الفنون، أشرف على الترجمة: رفيق العجم، مكتبة ناشرون، بيروت، ط/1، 1996.
15. خثير عبد ربي، النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي، دار الغرب، الجزائر، د/ط، 2003.
16. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النصّ، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 164، 1992.
17. عبد السلام عشير، إشكالات التواصل والحجاج، رسالة دكتوراه، جامعة ظهر المهراز، فاس، المغرب، 2000.
18. عبد النبي خالد، الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة)، مجلة عالم الفكر، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الملجد 40، العدد 02، (أكتوبر-ديسمبر) 2011.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

19. عمر فاروق الطباع، مواقف في الأدب الأموي، (تحليل، دراسة، منتخبات)، دار العلم، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت
20. فرانسواز أرمنيكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، د/ط، 1986.
21. محمد أبو زهرة، الخطابة (أصولها، وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب)، دار الفكر العربي، ش: جواد حسيني، القاهرة، د/ط، د/ت.
22. محمد التومي، الجدل في القرآن، الشركة التونسية، تونس، 1980.
23. محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية في القرن الأول نموذجًا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1992.
24. محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، دار الأمان، الرباط، ط/1، 2005.
25. مصطفى الغرافي، عن البلاغة... دراسة في تحولات المفهوم، مجلة عالم الفكر، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 02، المجلد 42، (أكتوبر- ديسمبر) 2013.
26. و.ك ويمزت، ك.بروكس، النقد الأدبي، ترجمة حسام الخطيب ومحي الدين صبحي، دمشق، 1973.
27. M.J. Borel, L'explication dans l'argumentation, Langage Française, N°50, Parie, 1981.
28. O. Ducrot et Anscombre, L'argumentation dans la langue, Pierre Margada, édition, Paris, 1983.
29. Van Gijek, La Cienca del Texto, Trad Barcelona, 1984.

الهوامش:

(1) – ينظر: الخطابة (أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب)، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ش: جواد حسيني، القاهرة، د/ط، د/ت، ص5.

(2) – البرهان في وجوه البيان، إسحاق بن إبراهيم ابن وهب، تح: خنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، 1969، ص:151-153.

(3) – كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، تر: محمد قميحة، دار الكتب العلمية، 1981، ص154.

(1) – الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، محمد الولي، دار الأمان، الرباط، ط/1، 2005، هامش 19، ص19.

(2) – الخطابة، أرسطو، تر: عبد الرحمن بدوي، د/ط، د/ت، ص29.

(3) – ينظر: مقال عن البلاغة... دراسة في تحولات المفهوم، مصطفى الغرافي، مجلة عالم الفكر، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 02، المجلد 42، (أكتوبر- ديسمبر) 2013، ص220.

(4) – كشاف اصطلاح الفنون، التهانوي، أشرف على الترجمة: رفيق العجم، مكتبة ناشرون، بيروت، ط/1، 1996، ج1، ص248.

(5) – ينظر: مقال عن البلاغة.... دراسة في تحولات المفهوم، مصطفى الغرافي، ص174.

(6) – المرجع نفسه، ص175.

(1) – ينظر: المرجع نفسه، ص175.

(2) – المقاربة التداولية، فرانسواز أرمنيكو، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، د/ط، 1986، ص8.

(1) – إشكالات التواصل والحجاج، عبد السلام عنبر، رسالة دكتوراه، جامعة ظهر المهراز، فاس، المغرب، 2000، ص14.

(2) – ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة)، عبد النبي خالد، مجلة عالم الفكر، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الملجد 40، العدد 02، (أكتوبر-ديسمبر) 2011، ص7، وينظر كذلك: حوار حول الحجاج، أبو بكر العزاوي، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط/1، 2010، ص108.

(3) – النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي، د/خثير عبد ربي، دار الغرب، الجزائر، د/ط، 2003، ص169.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

(1)- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النصّ، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 164، 1992. ص: 12.

2- La Cienca del Texto, Van Gijek, Trad Barcelona, 1984, P: 79.)

3)- العقد الفريد، ج140/4.

4)- المرجع نفسه، ج46/5.

5)- العقد الفريد، ج46/5.

6)- بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ط2، ص: 76.

7)- جمهرة خطب العرب، ج287/2.

8)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط79/2.

9)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 118.

10- L'argumentation dans la langue, O.Ducrot et Anscoubre, Pierre Margada, édition, Paris, P : 1983.)

11)- عقد الفريد، ج113/4.

12)- بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 82.

13)- سور الروم، الآية: 58/ سور الزمر، الآية: 27

14)-.سورة إبراهيم، الآية: 45.

15)- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ص: 117-118.

16)- الجدل في القرآن، محمد التومي، الشركة التونسية، تونس، 1980، ص: 232.

17)- المرجع نفسه، ص: 233.

18)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

19)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 85.

20)- سورة النحل، الآية: 112.

21)- البيان والتبيين، ج118/1.

22)- الخطابة العربية، إحسان النص، ص: 198.

23)- البيان والتبيين، ج118/1.

24)- بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 56.

25)- بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 97.

26)- النقد الأدبي، و.ويمزت، ك.بروكس، ج104/1.

27)- الخطابة العربية في أزهر عصورها، الإمام عبد الرحمن أبو زهرة، ص: 53.

28)- الخطابة العربية، عبد الرحمن أبو زهرة، ص: 53.

29)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 67.

30)- المرجع نفسه، ص: 100.

31)- مواقف في الأدب الأموي، ص: 273-274.

32)- في النقد والأدب مقدمات جمالية عامة مقطوعات من العصر الإسلامي الأموي، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، ط5، 1986، ج329/2.

33)- الخطابة العربية وفن الإلقاء، الدكتور أشرف موسى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1978، ص: 79.

34)- المرجع نفسه، ص: 56.

35)- البيان والتبيين، ج228/1.

36)- المرجع نفسه، ج204/1.

37)- المرجع نفسه، ج70/1.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

38)- الخطابة وفن الإلقاء، ص: 55.

39)- كتاب الصناعتين، ص: 439.

40)- سورة الحاقة، الآية: 108.

41)- البيان والتبيين، ج120/1.

)- L'explication dans l'argumentation, Langage Française, M.J. Borel, N°50, Parie, 1981, p : 22.42

43)- تحليل الخطاب الصوفي، ص 122.

44)- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تصحيح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ج77/2-78.

45)- مواقف في الأدب الأموي، ص 279.

46)- المرجع نفسه، ص: 279-280.

47)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط1، ص: 134.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548